الدروس التربوية

من الأمثال القرآنية

أ. أناهيد بنت عيد السميري

رمضان ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من المؤمنين المتقين، المتابعين لرسولنا الكريم، السائرين على طريق السلف الصالح؛ الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، نسير على سيرهم ونعتقد فضلهم، ونحبهم في الله، حب من يعلم أن هؤلاء قد اصطفاهم الله، وفي نفوسنا كل الاحترام والتقدير لما بذلوه وفعلوه في حفظ الدين. فالله اصطفاهم وجعلهم حملة لهذا الدين، وقد أحسنوا في إيصاله إلينا، ونرجو من الله، أن نكون نحن أيضًا ممن يحسن حمل هذا الدين لمن ورائه، فيكون مجرِّدًا للتوحيد من الشرك والالتفات لغير الله، ومجردًا للأعمال من البدع والأهواء. يراجع في كل شأنه ما ثبت عن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وعن الصحب الكرام الذين نقلوا هذا الحق. ونعوذ به -سبحانه وتعالى- أن نكون كأولئك القوم الذين ذمهم -سبحانه وتعالى- في سورة الجمعة، الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها. فالله -عزَّ وجلَّ- قد

ضرب مثلًا لأهل الإيمان، للصحابة الكرام، لأصحاب الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذين تحملوا الدين وحملوه ونقلوه، فهم فهموه وعملوا به، عرفوا محكمه فعملوا به وآمنوا بمتشابهه، نقلوا الحق خالصًا، ضرب لهم مثلًا في سورة الفتح، في مقابل أنه -سبحانه وتعالى- ضرب مثلًا لأصحاب موسى -عليه السلام-، الذين حُمِّلوا التوراة ولم يحملوها. مدح في سورة الفتح أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، كما سيتبين لنا، وذم في سورة الجمعة من أهل الكتاب من حمل هذا الكتاب لكنه لم يحسن في حمله.

نبتدئ، في سورة الفتح مشيرين لبعض الأمور المهم فهمها لفهم المثل، المثل في سورة الفتح أتى في آخر السورة. من أجل فهمه لا بد أن نعود إلى أول السورة، ومطلع السورة من المطالع المتكررة على ألسنة الناس حبًا لما فيها من بشرى، حبًا لما فيها من خير. فهذا المطلع فيه من الأخبار عن الله، والأخبار عن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- والأخبار عن المؤمنين، وعن المشركين والمنافقين أيضًا. مطلع عظيم فيه خبر عن رب العالمين، وفيه خبر عن الرسول الكريم، وفيه خبر عن الأصحاب، وفيه خبر عن الكفار والمنافقين.

نقرأ من الآية الأولى حتى التاسعة:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

هذه الآيات المباركات التي سمعناها من مطلع سورة الفتح نرى فيها أخبارًا عظيمة عن الله -عزَّ وجلَّ- ننظر للآيات نجد أخبارًا عن الله. نسمع (إِنَّا) ونسمع فعل (فَتَحْنَا)، (لِّيَغْفِرَ)، (وَيَهْدِيَكَ)، (وَيَنصُرَكَ)،(أَنزَلَ السَّكِينَةَ)،(لِيَزْدَادُوا)، (وَيُعَذِّبَ) ، (أَرْسَلْنَاكَ).

تجد أيضًا (إِنَّا) في بداية الآية الأولى وفي بداية الآية الثامنة، هذا خبر عن الله.

ثم نجد أخبارًا عن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، (لِّيَغْفِرَ لَكَ) نلاحظ كاف المخاطب في الآيتين الأولى والثانية، (فَتَحْنَا لَكَ)، (لِّيَغْفِرَ لَكَ)، (عَلَيْكَ)، تحتاج إلى ملاحظة ودقة لتصور هذه الأخبار التي أتت في مطلع السورة لأجل أن نعرف أن هذا النبي الكريم الذي اصطفاه رب العالمين قد أكرمه كرمًا عظيمًا.

نلاحظ أيضًا البشرى للمؤمنين في الآية الخامسة، ونلاحظ في الآية السادسة الإنذار للمنافقين والمشركين، وفي الآية الثامنة يخبر الله -عزَّ وجلَّ- أن هذه هي وظيفة الرسول: (مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، ثم أخبر -عزَّ وجلَّ- عن حقوق الرسول أيضًا.

ننظر للآيات ونقول إن مطلع السورة فيه أمر عجيب وهو ترتيب المغفرة على الفتح (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) وتأتي اللام (لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ)، هذا مباشرة يأتي بسؤال: كيف تترتب المغفرة على الفتح؟ لأن فتح الله لنبيه لا يظهر أن علته لمغفرة ذنبه، والجواب، كما ذكر أهل العلم، من وجهين:

الوجه الأول: أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما يُفتح عليه -وهو النبي الكريم المؤمن برب العالمين، الذي يعرف أن الله هو الذي فتح وليست الأسباب، وأن ما يدعو إليه -صلَّى الله عليه وسلَّم- حق- بدلالة الالتزام، المتوقع أن الفتح للنبي يدل على شكر النبي لنعمة الفتح، فيغفر الله له ما تقدم وما تأخر بسبب شكره. والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يشكر بمعنى أنه يعمل الأعمال الصالحات، فالأعمال الصالحات بأنواعها شكر لله، فكان شكر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لازمًا لنعمة الفتح، والغفران مرتب على هذا اللازم. إذا فتح الله سيشكر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، إذا شكر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، سيُغفر له، وهذا واضح إذا استشهدنا بسورة النصر (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) فالتسبيح بحمد ربه واستغفاره لربه هذا شكر على نعمة الفتح، وهذا سبب لغفران ذنب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لأنه رتب تسبيحه بحمده واستغفاره بالفاء (فَسَبِّحْ)، رتبه على مجيء الفتح.

ثم بيّن أن ذلك الشكر سبب للغفران (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) لأنه سبح بحمد الله واستغفر شاكرًا الله، والله تواب فسيتوب عليه. وهذا شيء مشهور، لما كان الصحابة يقولون للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "لا تتعب نفسك في الطاعة فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر" فكان النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول «أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1]. هذا معنى، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- بيّن أن اجتهاده في العلم ليشكر تلك النعمة، وترتيب الغفران على الاجتهاد في العمل أمر واضح، إذا اجتهدت في العمل غفر الله لك.

وهذا نقوله ونحن في نهاية هذا الشهر المبارك، أن الواجب علينا أن نجتهد حتى آخر ساعات هذا الشهر، ليترتب على ذلك الغفران.

إذًا فتح الله على الرسول، هذا يلزم أن الرسول شكر، وتأتي البشرى بأن الله غفر، وهذا معنى واضح.

الوجه الثاني: حين تسمع: (إِنَّا فَتَحْنَا) تفهم بدلالة الالتزام أن هناك جهادًا؛ لأن السبب الأعظم في الفتح الجهاد، ومر معنا كثيرًا أن الجهاد يكون بالنفس ويكون

---

[1]() أخرجه البخاري (4836)،

بالـمال ويكون بالعلم، ويكون بهم جميعًا. الجهاد سبب لغفران الذنوب، فيكون الـمعنى: ليغفر لك الله بسبب جهادك الـمفهوم من ذكر كلمة الفتح.

ملخص القولين، كل من اجتهد في الشكر لله بالطاعة، وجاهد بنفسه وماله، جاهد لنشر العلم، جاهد لقتال العدو فليبشر بمغفرة الله، وهذا واضح جدًا حين نتكلم عن العلاقة ين الصيام القيام والـمغفرة، «مَن صامَ رمضانَ وقامَهُ، إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ، ومَن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ لَهُ ما تقدَّمَ من ذنبِهِ»[2] نسأل الله أن يجعلنا ممن صام وقام، وقام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا.

من هنا نفهم أننا أمام نبي كريم مجتهد في طاعة رب العالمين، وعده ربنا بوعود، وهذه الوعود مناسبة لهذا الوضع الذي نزلت فيه آيات سورة الفتح. لأنه ما الـمقصود بالفتح؟ الفتح هو صلح الحديبية حين صد الـمشركون الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما جاء معتمرًا في قصة معروفة، آخرها أُمر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يصالح هؤلاء وكان هناك شروط،

---

[2]() أخرجه البخاري (1901).

وحصل من الخير من وراء هذا الصلح، حتى لو كان في ظاهره خلاف ذلك.

الصحابة، نستطيع أن نقول، أتاهم من الحزن والكآبة لما أجاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قريش على سؤال الهدنة، وعلى سؤال تأجيل العمرة، فهذا أوقع في نفوسهم الشيء الكثير؛ لذلك قال الله -عزَّ وجلَّ- عن الأصحاب الكرام: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) وهنا يقصد بهم أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما حصل ما حصل، منَّ عليهم بإنزال السكينة في قلوبهم، والسكينة هي السكون والطمأنينة، وهي الثبات عند نزول المحن. فهذا من نعم الله على هؤلاء الأصحاب الكرام، ثبتهم وربط على قلوبهم وأنزل عليهم السكينة. ولا بد أن نتصور أن هؤلاء أتوا بكل أمل أن يدخلوا الحرم، ويطوفوا فيه، وتشبع نفوسهم وترتوي منه، وهم على التوحيد والإيمان. فمُنعوا من ذلك والمنع غاية في المرارة، المنع عمومًا من غاية الإنسان مُرٌّ، وأما المنع من زيارة بيت الله الحرام فهو العلقم ذاته. نسأل الله ألا يحرمنا بيته وأن يجعلنا معمّرين له، طائفين، عابدين، ذاكرين، وأن يجعلنا من الحجاج، يا رب العالمين!

المقصد أن قلوبهم قد وصلت إلى حد الغليان، ووقع في نفوسهم ألم عظيم؛ يُصرفون عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد هم رأوا أن هذا العدد قادر على أن يدخل إلى مكة، لا يستطيعون أن يردوهم، وأنهم إذا أرادهم العدو بسوء أو صدهم سيقابلونهم وينتصرون عليهم، وكان في ذهنهم أنهم سيدخلون مكة قسرًا، والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وعدهم أنهم سيدخلون، فهذا كله سبب لهم الاضطراب، فهم بشر وقلوبهم مثل البشر يحصل فيها ما يحصل من أثر الأحداث التي تدور حولهم، حتى أنهم تكلموا في تسمية ما حل بهم، يومئذ "فتحًا"، ووقع في قلب عمر -رضي الله عنه- ما وقع، وهو عمر! في إيمانه وتقواه. لما بيّن لهم الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب، ورسخ يقينهم بعدما وقعت في نفوسهم خواطر، فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا في حزن. أنزل الله هذه الطمأنينة عليهم إنزالًا، وهي السكينة.

النصر مشتمل على أشياء كثيرة من أهمها: إنزال السكينة، وإنزال السكينة في هذا الموقف يشبه تأليف قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وكانوا في الجاهلية أبناء عمومة يتقاتلون، فجاء الإسلام وأصبح الناس

-الذين هم من قبائل شتى متباعدة- على قلب رجل واحد، فهذا من نصر الله -عزَّ وجلَّ- وفتحه. هذه السكينة التي يجب أن نسأل الله دائمًا أن ينزلها علينا من أجل أن تثبت قلوبنا ونزداد إيمانًا ويقينًا. هنا نلاحظ شيئًا عجيبًا، وهو أن الله -عزَّ وجلَّ- قد أخبر عن جنوده بعدما أخبر عن السكينة (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) وأيضًا هذه الجملة القرآنية العظيمة تكررت في الآية السابعة: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)، بعدما أخبر عن المنافقين والمنافقات. بعدما أخبر عن المؤمنين وإنزال السكينة عليهم أخبر أن له: (جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)، ولما أخبر عن المنافقين قال -سبحانه وتعالى- : (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا). وهذا يحتاج إلى تأمل لكن مجمل المعنى يفهم من جهة أن هؤلاء أهل الإيمان فلا عجب أن يفتح الله للنبي هذ الفتح، ولا عجب أن ينزل السكينة في قلوب المؤمنين، بعد أن وقع في قلوبهم الاكتئاب وانكسار الخواطر، فالله من يملك جميع وسائل النصر، وله القوة القاهرة في السماوات والأرض، وما هذا الذي يقع في نفوس المؤمنين من سكينة إلا بعض

ما لله من القوة والقهر، فهو الواحد القهار. فهذا معناه أن أهل الإيمان يفهمون أنه إذا خامرهم اكتئاب، إذا وقع في نفوسهم ارتياب فليطلبوا من الله أن ينزل عليهم السكينة. نلاحظ (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فجنود السماوات والأرض الملائكة -مثلًا- الذين نزلوا بالسكينة على الأصحاب الكرام.

فكر فستجد أن الله يسخر ما يشاء لمن يريد، الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر من جنود السماوات والأرض، الريح التي أرسلت على الأحزاب يوم الأحزاب، المطر الذي أنزل على المسلمين يوم بدر فثبت به الله أقدام المسلمين، هؤلاء كلهم جنود. حين نأتي عند الكفار والمنافقين نجد أن هؤلاء أيضًا رب العالمين يسلط عليهم، الكلام عن جنود الله معناه أن هناك فريقًا مهزومًا، فإذا كان النصر في صالح المؤمنين فالقوم الذين سيعذبون بيد المؤمنين، وبيد جنود السماوات والأرض هم هؤلاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات والسبب -طبعًا- سوء ظنهم بالله. هذ الحال التي سمعنا عنها أفهمت أن الله راضٍ عن هؤلاء المؤمنين، وأنه -سبحانه وتعالى- اصطفاهم لنبيه

الكريم، فجاء المثل بعدما أتت تفاصيل في السورة تتكلم عن أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- الصادقين المؤمنين، وعن الأعراب الذين آمنوا لكن إيمانهم على حرف، أخبر -عزَّ وجلَّ- عن رضاه عن المؤمنين الذين يبايعون تحت الشجرة، وهكذا أحداث حصلت كلها دائرة حول الأصحاب الكرام مع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكيف تعاملوا مع موقف ردهم ومنعهم، الموقف الذي تظهر فيه ثقتهم برب العالمين، وثقتهم بالرسول الكريم -صلَّى الله عليه وسلَّم-. قد يقول أحد: "هم غضبوا ووقع في قلوبهم شيء" نقول: نعم! لكن لما كلمهم النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبيّن لهم؛ استجابوا، بل لما خرج النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وحلق رأسه إعلانًا أنه سيعود لا بد، ما ترددوا ولا خالفوا، بل امتثلوا امتثالًا تامًا عجيبًا. وهذا كله يدل على حالهم من جهة إيمانهم. وسيفسر هذا الآن بصفتهم التي ضُرِبَت في التوراة والإنجيل لهم. وهنا لابد من التأكيد على أن هؤلاء الذين اصطفاهم الله -عزَّ وجلَّ- قد أخبر عنهم قبل أن يأتوا! وهذا من الأدلة العظيمة على نبوة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، فالنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد جاء خبره في الكتب الأولى؛ في التوراة والإنجيل، بل

قد جاء خبر عن مهجره، إلى أين سيهاجر بعدما يخرجه قومه، ووصف أنه إلى واحة ذات نخل في وسط صحراء. فترك اليهود -الذين عرفوا هذه الأخبار- الشام التي هي جنة الدنيا وجاؤوا إلى يثرب معتقدين أنها مكان مهجر النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، لكن الشقاء الذي يختاره الإنسان لنفسه هو الذي منعهم أن يؤمنوا بالنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، نسوا الكتاب حتى قست قلوبهم.

الخبر عن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- جاء في التوراة والإنجيل والخبر عن أصحابه أيضًا جاء في التوراة والإنجيل. هذه الأخبار يهمنا أن نعرفها ونعرف ماذا نعتقد في الأصحاب الكرام وكيف أنها جزء من ديننا. نقرأ آخر آيتين في السورة:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

هذه الآيات الكريمات تشير إلى النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وإلى أصحابه، وأنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- مرسل من عند الله، ومعه الهدى ودين الحق، وأن هذا الدين سيظهر، أرسله الله -عزَّ وجلَّ- لأجل أن يظهر. سيظهر ما أُرسل به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- على الدين كله، سيظهر ما أتى به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- على كل ما يدين به الناس، فالله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، بالعلم النافع والعمل الصالح، وأظهره -سبحانه تعالى- أظهر العلم، أظهر الحجة، بيّن -سبحانه وتعالى- في هذا الدين بيانًا تامًا ما يريد وما يرضى عنه، سبحانه وتعالى. هذا الدين الذي جاء ليبطل به الملل كلها حتى لا يكون دين سواه. هذا الدين الكامل واجه التحريف الذي حصل في التوراة والإنجيل، واجه الضلال الذي نشر على يد هؤلاء، الذين حُمِّلوا التوراة ولم يحملوها. هذا الدين الذي أراد الله إظهاره، كيف سيظهر؟ هل سيظهر وهو مخبأ ومكتوب في الكتب؟ هل سيظهر بدون أن يكون هناك عاملين به، ناشرين له؟ مجاهدين في نشره. الجواب: لا، سيظهر هذا الدين على

يد رجال صالحين اصطفاهم رب العالمين. فجاءت الآية التي بعدها مباشرة: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ) أصحابه، ما بهم؟ لهم صفة، تعرفهم من صفتهم. سيتبين أن هذا مثلهم في التوراة، ثم سيتبين أيضًا أن لهم مثلًا في الإنجيل.

الله -عزَّ وجلَّ- ذكر لنا أنه هو الذي اصطفى رسوله واصطفى من مع الرسول ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان هذا أعظم البراهين على صدق القرآن؛ لأنه أخبر عن مثل أصحاب الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- كما ذكروا في التوراة والإنجيل. حين يُتهم النبي وأصحابه -في سالف الزمان أو في زماننا- أنهم قوم طلبوا ملكًا ودينًا، وأنهم خرجوا يقاتلون الناس لأجل الدنيا فيقال: "كذبتم والله"، فالله أخبر عن رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في التوراة والإنجيل، وليس ذلك فقط، بل أخبر أيضًا عن الأصحاب؛ لذلك -كما يذكر ابن القيم- أنه لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم عدلهم وعلمهم ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة، قالوا: "ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء" هذا أمر واضح في كون أن القرآن هو الحق؛ لأنه أخبر عن

أخبار وجدت في الكتب السابقة، وهذه الأخبار نفسها تدل على أن هذا الدين حق؛ لأن في الأخبار السابقة وصف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ووصف أصحابه.

نأتي إلى أوصاف الأصحاب في التوراة أولًا، لا زلنا في سورة الفتح، ولا زلنا في الموقف الذي حصل فيه غضب من الأصحاب على الكفار، فلما بيّن ربنا -سبحانه وتعالى- صدق الرسول في رؤياه، واطمأنت نفوس المؤمنين أخبر عن حقيقة الذي حصل لهم. ماذا حصل لهم؟ هم (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)، وهؤلاء الكفار منعوهم، فأكيد أن في قلوبهم سيكون بغض وغضب على أهل الكفر، هذه هي الصفة الأولى، فلا نقل: "نحن متسامحون، صفتنا التسامح، سنسامح كل الناس، ونكون سلامًا على كل الناس" ليس صحيحًا، بدليل أن الله أخبر أن أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)، فقوتهم الغضبية إنما هي تابعة لعقيدتهم الإيمانية. بمعنى أن عقيدتهم الإيمانية تقول لهم: "هؤلاء أعداء تعدوا على حق الله، تعدوا على شرع الله، تعدوا على رسول الله، فلا يمكن أن يحصل بيننا وبينهم محبة، ولا يمكن أن يحصل بينهم موافقة" فهم (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) لرسوخهم في صحة الاعتقاد بحيث يغارون على

العقيدة الصحيحة، فيغيرون على أهل الكفر. وانظر ماذا يحصل في قلبك حين تجد أهل الكفر وأهل الباطل يتعدون على الدين، ويسبون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يتعدون على الذات الإلهية، ماذا يحصل في قلبك من الغليان؟ قبل أن نقول: "ويتعدون على المسلمين ويقتلونهم" قبل هذا، قبل تعديهم على المسلمين وقتلهم فكر في اعتدائهم على الذات الإلهية، اعتدائهم على الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، اعتدائهم على الأصحاب. هذا كله يسبب غيظ في قلوبنا، ويكتمل هذا الغيظ حين يعتدون على أهل الإيمان، على المسلمين، على شخوصهم. لكن نحن أولًا نغار على حق الله، نغار على حق الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-. لذلك (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) لرسوخهم في صحة الاعتقاد، (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) إذا أخرجوا للناس باطلًا، واعتدوا على ربنا، أو على النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- والصحابة الكرام، على رموز الإسلام، نشعر أننا أشداء عليهم وما نقبل ذلك وندافع عن الإسلام ما استطعنا. والصورة تكتمل حين يعتدون على أبدان المسلمين، وعلى أوطانهم.

في مقابل ذلك (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) وهذا وصف عجيب، لماذا هم (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)؟ ما علة الرحمة؟ علة الرحمة عدم تنافسهم على الدنيا، وهذا من أعجب ما يقال، إن عدم التنافس على الدنيا يسبب رحمة بعضهم ببعض. لكن حين يحب الناس الدنيا سيفتك بعضهم ببعض، فتذهب الرحمة. هذه هي أخلاقهم، ونأتي إلى أعمالهم، وهي واضحة (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) فوصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، وصفهم بالإخلاص وهو عمود العمل، وصفهم بالاحتساب عند الله، وهذا روح العمل. نسأل الله أن يقبل منا أعمالنا وأن يجعل لها روحًا، وهي انتظار الأجر عند رب العالمين، فهؤلاء يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، يريدون الجنة وهي من فضل الله، يريدون فضل الله في سعة الدنيا، وهنا سعة الدنيا بسعة الفؤاد، صلاح الدنيا بصلاح البال. تجد أن هؤلاء صورتهم لهم سيما في وجوههم من أثر السجود، وهذا بيان للسيما. ما معنى (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)؟ أحسن ما يقال إن لهم سمتًا حسنًا مجموع في التواضع الصادق وليس الكاذب، نسأل الله أن يرزقنا التواضع الصادق. وهذا قد تكلم فيه أهل العلم كثيرًا، على أن ما في القلب

ينعكس على ما في الوجه، وقد قال بعض السلف: "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار" وذكروا كثيرًا من الكلام المشهور أن "للحسنة نور في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب العباد" ومما أثر عن عثمان -رضي الله عنه- أنه قال: "ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه." لذلك علينا أن نسأل الله دائمًا ان يطهر قلوبنا، فلنجتهد فيما بقي من رمضان في هذا السؤال: "اللهم طهر قلوبنا!" وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: «لو أنَّ أحدَكُم يَعملُ في صخرةٍ صمَّاءَ ليسَ لَها بابٌ، ولا كوَّةٌ، لخرجَ عملُهُ للنَّاسِ كائنًا ما كانَ»[3] والله المستعان. ذكر أهل العلم أمورًا في هذه الصفة لن نقف أمامها فيذهب علينا المثل الثاني.

حين نسمع قوله تعالى: (ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ) يعني وصفهم في التوراة، وهنا مثل بمعنى: "وصف"، مثلهم في التوراة يعني صفتهم العجيبة مذكورة في التوراة، يعرفونهم.

---

[3]() أخرجه أحمد (11230/1).

(وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) شُبِّه الأصحاب الكرام بالزرع، لكن سنرى ما شأن هذا الزرع. هذا الزرع لما خرج حالته فيها ضعف؛ لذلك كان يحتاج إلى شيء يشده، (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ) الزرع يخرج حوله فراخ صغار، ماذا فعلت هذه الفراخ؟ آزرت، قوَّت. نبت في جوانبه، فحصل من ذلك المؤازرة بمعنى المعاونة والتقوية. كيف عاونه وقواه؟ آزره يعني ساواه في الطول كما يذكر في بعض التفاسير، ومن هنا يأتي "وزير"، فـ"آزره": شاركه المهام.

(فَاسْتَغْلَظَ) صار ذلك الزرع غليظًا بعد أن كان رقيقًا.

(فَاسْتَوَىٰ) يعني استتم وتكامل على سوقه، أصبح فرعه قويًا، فهذا المثل مضروب في الإنجيل للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابه، يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون، ويتعاونون؛ لذلك في سورة الأنفال قال تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ).

المقصد أن انظر للزرع، وهذا نوع خاص من الزرع، يخرج هو ضعيف في ساقه لكن يخرج معه

فراخ، يخرج معه مثل السنبلة ومعها سنابل، فيقوي بعضهم بعضًا إلى أن يغلظ ويشتد. (فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ)، والسوق جمع: ساق، فتجده معتمدًا على ساقه. المؤازرة صفة غاية في الأهمية، يؤازر بعضهم بعضًا في حمل الحق، في بيان الحق، في نشر الحق.

هذا (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) كما أخبر سبحانه وتعالى. هذه الصورة صورة نبات يخرج ضعيفًا، وتصور السنبلة، حين تأتي الريح تهب عليها تقلعها لكن حين يكون هناك سنبلة ثانية وثالثة ورابعة وعاشرة. حين تأتي الريح تجد أمامها مجموعة من السنابل ويكون هذا أخف عليها. المقصد أن هذه الصورة تعجب الزراع من استوائه على سوقه، وحسن نباته، وبلوغه وانتهائه، الزراع الذين يزرعونها يكونون سعداء بوصول زرعهم أن استوى على سوقه. وهنا ينتقل السياق للكلام عن أهل الكفر، بمعنى ينتقل من الصورة الحسية إلى الصورة المعنوية. أرأيت ذاك الزرع الذي خرج ضعيفًا، كيف أكمل؟ خرج بجانبه فراخ، تنبت بأمر الله، وهذا نوع علم يفهمه أهل الزراعة، ويفهم علاقتها ببعض وكيف يقوى الساق بناء على جودهم. أرأيت هذا؟ هكذا كان أصحاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-. بدأ النبي -صلَّى الله عليه

وسلَّم-، ثم أتى أبو بكر -رضي الله عنه- وخديجة وكذا وكذا، وكثر الأصحاب، وبعدما كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة، أصبحت أمة عظيمة متعاونة. أرأيت هذا؟ إنه يغيظ الكفار، فالأصحاب الكرام يشبهون الزرع في نمائهم وقوتهم وكثرتهم وصورة تعاونهم، فقوتهم وكثرتهم تغيظ الكفار، وبذلهم وجهدهم وتعاونهم يغيظ الكفار؛ لذا شياطين الإنس والجن لهم عمل واحد وهو التفرقة بين أهل الإيمان، لماذا؟ لأن هذه التفرقة تذهب القوة، وهذا هو المراد. الكفار يغتاظون غيظًا من اجتماع المؤمنين.

وقد ذكرت لنا إحدى النساء التي دخلت في الإسلام، وهي ترى الحجاج رؤية مباشرة في الحرم، في اليوم الثالث عشر، وعددهم الذي هو على مد البصر، فقالت -بلُغتها ما ترجمته-: "إن هذا المنظر يغيظ الكفار" بهذه الصورة، وهي كانت حديثة عهد، لم تعرف القرآن وآياته والأوصاف التي ذكرت لأهل الباطل، بعد، لكنها قالت: "هذا المنظر يغيظ الكفار"، وهذه هي الحقيقة التي أخبرنا الله -عزَّ وجلَّ- بها، وها نحن نراها، ونسمعها ونعرف من أخبارهم. فالزرع محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم-، والشطء أصحابه والمؤمنون، وقد تعاونوا

وكثروا. كانوا في بداية الإسلام قليلين، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم، فأعجب الناس الطيبين، وكره واغتاظ الكافرين.

انظر لهؤلاء، وانظر في مقابل ذلك لهؤلاء الذين حملوا الدين وأوصلوه إلى العالمين، وانظر في مقابل ذلك إلى الكافرين، الفاجرين، الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها. انظر كيف مثلهم رب العالمين بالحمار الذي يحمل أسفارًا. فهذا مثل ضربه الله لليهود، نحن في سورة الجمعة، نقرأ الآية الخامسة:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

سمعنا في سور الفتح الخبر العظيم عن الأصحاب الكرام، كيف كانوا مع نبيهم -صلَّى الله عليه وسلَّم- يؤازرونه، وكيف كان حالهم -رضوان الله عليهم- في التعاون، تعاونوا. فموسى -عليه السلام- كان له وزير من أهله، النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- آزره هؤلاء كلهم وحملوا الدين إلى أن أوصلوه لنا. في مقابل ذلك أن أهل التوراة الذين حُمِّلوها لم يحملوها. هذا مثل ضربه الله

لليهود، وقد شبههم بحمار، وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار، وهي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبه تكليفهم بالتوراة بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار.
ماذا فعلوا مع التوراة؟ هل تعلموها؟ هل عملوا بها؟ هل نشروها؟ هل تعاونوا في ذلك؟ هل اجتمعوا مع الناس ففهموهم كتاب الله؟ التوراة كتاب الله، نزل من عند الله. بل بالعكس فعلوا عكس ذلك، لكن هنا المثال أن كما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره، كذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة، بدليل أنهم كلفوا باتباع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وإظهار صفاته للناس، فخانوا.

سمعنا في سورة الفتح أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- كانت صفاته، هو وأصحابه -رضوان الله عليهم- في التوراة وفي الإنجيل، لكن هم خانوا وحرفوا وبدلوا، فلم ينفعهم ما في كتبهم من العلوم. نلاحظ وجه الشبه وهو عدم الانتفاع بما تحملوه من التوراة، وهم يعلمون ما فيها من رسالة محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لذلك في سورة البقرة قال تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ) يعرفون من؟ يعرفون النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، مثل ماذا؟ (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ). هؤلاء جحدوا رسالة النبي

-صلَّى الله عليه وسلَّم- وهم يعرفون، وفهمنا الفرق الكبير بينهم وبين الصحابة الكرام.

في نهاية هذا المطاف نؤكد أن هذا المثل الذي ضرب في سورة الجمعة، هذا مثل يمكن أن ينطبق على كل أحد. هو مثل ضرب في من حُمِّل التوراة، لكن يمكن أن يكون مثلًا لكل من حمل كتاب الله، ثم لم يقم بما يجب عليه، خاصة طلبة العلم وحملته. فعلى من عرف شرف هذا الدين وعرف أنه هداية للعالمين، فليبذل جهده في أن يتمسك بهذا الكتاب، هو بنفسه يتمثله ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وينشره ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. هذا أول النصر وأهم النصر، أهم نقطة بداية لنصر هذه الأمة: ألا نحمل الكتاب كما حمله اليهود فكان هذا هو المثل اللائق بهم، أنهم كالحمار يحمل أسفارًا، الحمار لا يفهم ما في هذا الكتاب، نقطة البداية لإصلاح أنفسنا وإصلاح مجتمعنا، أن نقبل على هذا الكتاب، ونتدارسه، ونفهمه، ونعمل به، ونعدل معاييرنا على مقياسه، إلى أن نكون متمثلين به ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، منتفعين به.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفعنا بهذا القرآن الكريم، وأن نكون -ونحن في ختام شهرنا، شهر

القرآن- قد امتلأت قلوبنا رغبة في زيادة العلم، نسأله -سبحانه وتعالى- أن يجعل عامنا كله عام القرآن، عام الإقبال على القرآن، وفهم القرآن، والتزود بالقرآن؛ لأن وراءنا وحشة نحتاج ما يؤنسنا فيها، وراءنا وحدة نحتاج من يكون معنا فيها، وقد بُشِّرنا أن القرآن يكون أنيسًا، يكون قاطعًا للوحدة في القبر. فهل بعد هذه الأخبار يزهد أهل الإيمان في أن يجعلوا القرآن أنيسهم وشفيعهم وقائدهم إلى جنات رب العالمين، نعوذ بالله من الزهد في أبواب الخير.

نسأله -سبحانه وتعالى- أن يشرح صدورنا لكل خير، اللهم آمين. إن كتب الله أن يكون هذا آخر لقاء لنا في هذا الشهر، فنسأله -سبحانه وتعالى- أن يتقبل منا ما عملنا وما اجتمعنا عليه وتكون كل الساعات التي جلسناها في موازيننا يوم القيامة كالجبال الرواسي، وأن يجمعنا جميعًا ونحن في أتم صحة وعافية وصلاح بال، أن يجمعنا على العلم أينما كنا. وإن كتب الله أن يمد لنا يومًا، ويتفضل علينا بصلوات وصيام ونهار، فإن شاء الله نكون على نفس الموعد.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.